

اللسان المرّ

وعالم عبد الوهاب الأسوانى

يشتمل هذا الكتاب (دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١) على روايتين قصيرتين أولاهما « اللسان المر » ، أما الأخرى فهي « ابتسامة غير مفهومة » . وستنقصر حديثنا على الرواية الأولى .

وماتزال البيئة الأسوانية شبه الريفية شبه الصحراوية حيث يضيق وادى النيل هى مسرح الأحداث الأثير عند عبد الوهاب الأسوانى فى روايته « اللسان المر » ، بينا بيئة القاهرة والإسكندرية هى مسرح الأحداث فى روايته « ابتسامة غير مفهومة » ، وهذا التقابل بين بيئتي الروائين كان قد جمع بينهما عبد الوهاب الأسوانى فى روايته الأولى « سلمى الأسوانية » والتقابل عنصر أساسى من عناصر البناء الروائى عند عبد الوهاب الأسوانى كما سنرى . تبدأ حركة القصة فى « اللسان المر » من أولها سريعة ، ومن خلالها نتعرف - فى الفصل الأول - على معظم الشخصيات الرئيسية .

نتعرف أولاً على « شيخ العرب شمروخ » وكرمه الباذخ وشخصيته المتباهية وقلبه الطيب . رجل فشطار يحب الافتخار كما وصفه معوض بن عبد الغنى الجوابرى . فهو يتردى على رأسه عمامتين من البفتة - فى هذه البيئة الحارة « الشمس قاسية رغم فصل الشتاء » (ص ٣٠) - كل عمامة تزيد على خمسة أمتار ، وثلاثة جلايب صوفية . وهو يوزع هداياه على أهل النجع على أثر وصوله من السفر . وتكون بتول بنت محمد على السوالمى من أوائل من يقابله . ورغم فارق السن بينهما إلا أنه حين ضمها إلى صدره أحس بنهديها المتمردتين على صدره ، فسرت فى جسده رعدة . أمسك بذقنها الناعم وقبلها فى خدّها . . نسى نفسه وطالت القبلة أكثر مما يجب . ولقد آتب شمروخ نفسه على تصرفه هذا مع بنت فى سن أولاده ، « تعصرها على صدرك ، تضايق خدّها الناعم بشعر ذقنك النابت ، ثم تزعم أنك أصيل النسب ، وأن جدّك

الأكبر كان من أصحاب رسول الله « (ص ٥) . وسيفسر هذا الموقف تصرفات شمروخ تجاه بتول فيما يلي ذلك من أحداث .

أما « بتول » فإن المؤلف يعرفنا بها في هذا الفصل على أنها فتاة تجمع بين الجمال والفقر . « استدارت لتخرج فتبعها الأنظار . . . شالها القטיפه الأحمر المتآكل الأطراف ينسدل على قامة سمهريه وساقين برونزيتين ممثنتين ، وقدمين كبيرتين حافيتين . حينما توارت عن الأنظار عادت إلى الواقفين عقولهم . » (ص ٥) .

ثم نتعرف على « مغربية » التي أطلق عليها شمروخ « بنت كذاب القبيلة » ، كما وصفته هي بدورها بأنه « مرّ اللسان » . كما نتعرف على العمدة الذي يقبل بدوره ليأخذ نصيبه مما يوزعه شمروخ من هدايا . ثم الشيخ علام الذي يستخدم في حديثه لازمة فكهة حين يصف الرجل أو المرأة بأنه مطين أو مطينة .

أما عبد الغنى الجوابرى والد معوض فإننا نتعرف عليه في الفصل الثالث وهو يتصف بالبخل الشديد ، ومن هنا تتبع كل تصرفاته وفي مقدمتها موافقته أو عدم موافقته على زواج ابنه معوض من بتول .

ومن الحديث الذى يدور بين الشيخ علام والعمدة يضع المؤلف أيدينا على القضية المحورية لروايتنا . فتتول من قبيلة السوام يتقدم لها معوض بن عبد الغنى من قبيلة الجوابر . « تكلم بشأنها مع أمها دون علم أهله » (ص ٩) . ولكن أباه رفض لأنه يخجل يريد أن يزوجه ابنة عمه حتى لا يتزوجها غريب يشاركهم في أرضهم ونخلهم . بينما أرجع شمروخ هذا الرفض إلى أن الجوابر يقولون إن نسب السوام الذى ينتمى إليه بتول وشمروخ وعلام والعمدة نسب مشكوك فيه ولهذا يرفضون الزواج منهم ؛ لهذا أقسم ثلاثاً بالطلاق من نسائه الثلاث إن لم يتم هذا الزواج . وعندما حاول العمدة والشيخ علام أن يثنياه اتهمها بالمداهنة وأنها يعتبرانه مجنوناً يخلف بالطلاق من غير تفكير . فانصرف العمدة بينما اتهم الشيخ علام شمروخ بأنه يريد خراب البلد . « يافقرى الوجه ، يامر اللسان ، يابن زينب المطينة » . (ص ١٢) .

وفي الفصل الثانى يقدم لنا المؤلف شخصيتى معوض وبتول . كما يقدم لنا تلك البيئة الأسوانية المتواضعة من خلال حركة الأحداث . لقد تعلم عبد الوهاب الأسوانى أن الفن الروائى فنٌ مآكر ، لهذا توارى في الرواية الجانب التسجيلى - إلا فى حالات قليلة - وحرص على أن يجعله يتخلل العمل الفنى فلا يفصل عن الجانب الحركى . فقد كان الفصل بين

الجانبيين الحركي والتسجيلي أو الدرامي والوصفي أو التصويري والتقريبي مما أخذ عليه في روايته سلمى الأسوانية . ففي هذا الفصل يُطلعننا المؤلف - من خلال حركة معوض وتبول وما يدور بينهما من حوار - على جانب من طبيعة هذه البيئة الأسوانية . فنستحضر غابة النخل التي تلتقي فيها بتول بجرتها مع معوض بحاره ، والصحراء على شاطئ ، والمصانع على الشاطئ الآخر . وما تنتجه الأرض من محاصيل كالقمح والبلح والمango والتمرس . ويضع ألقاظاً متناثرة هنا وهناك مما يستخدم في البيئة كأنها البهارات تضيء لوناً محلياً على الحوار مثل : أريدك بمعنى أحبك ، ومحقوق أى مخطئ ، والشطر أى الثدى ، والقسم ببحر الله الطاهر ، ونستمع إلى اللهجة فإذا هي خليط من البدوية والصعيدية والسودانية . والروح القبيلة التي تهيمن على النظام الاجتماعي . وتقاليده الجنائزات ، فعندما يموت رجل من السوالم يتزل الكل إلى المناحة وتضرب الطبول عليه سبعة أيام .

وفي الفصل الثالث يقدم لنا المؤلف والدى معوض . أما في الفصل الرابع فيقدم لنا مولد الشيخ عامر وينقسم هذا الفصل إلى ثلاثة أقسام : القبائل النوبية تتوافد على المولد ، ومن خلال متابعة تحركات معوض وتبول نعرف لمحة عن المولد وجذوره التاريخية . ثم يتسلل معوض من المولد وتسلل وراءه بتول إلى منزل تلك المرأة الزنجية مفرطة البدانة « كهرمان » التي نجحت في أن تبيئ لها جو الخطيئة فارتكباها ، إذ قدمت لمعوض خمر العرق ، وشجعتهما على الانفراد بإحدى حجرات المنزل التي أغلقا بابها ، بينما كانت هي تتلصص عليهما باشتهاء يفضح دوافعها الكامنة التي تتلهف على رؤية وقوع الخطيئة ، لأنها - فيما يبدو - محرومة من أية علاقة سوية في عالمها الخاص . وتعتبر كهرمان هي المقابل لشمروخ الذي يحاول الجمع بين الحبيين شرعاً وعلناً ، وإن كان بدافع شبيه بدافع كهرمان ولو أنه أكثر خفاء . ونعود أخيراً إلى المولد لنجد أن العطش قد استبدّ بنساء السوالم ، واستنجدن بشيخ العرب شمروخ . فأسرع - بما عرف عنه من شهامة وفشخرة معاً - في جلب السقاين من على شاطئ النيل على بعد ساعتين من المولد . فتحرك موكب ضخم طويل أوله حمير وآخره جاموس ، وشمروخ يركض بجواده في المقدمة والمؤخرة والوسط ، « أنت أسرع . . وأنت أمسك القرية جيداً . . وأنت هل تريد مساعدة ؟ أسرعوا وليكن في علمكم عند دخول المولد كل واحد منكم يخرج من فمه صوتاً « أر . . . أر . . . أر . . . » للحماره كي ينهق . سأعطيك إشارة خاصة ، عندما أريد للحمير أن تنهق . أريدها كلها أن تنهق دفعة واحدة ، وفي لحظة واحدة مفاجئة . يجب أن يكون

الموكب مثل يوم القيامة . لابد أن يجعل أهالى القرى يتحدثون عنه سنة كاملة بعد عودتهم إلى قراهم . فاهمين . أنا أدفع فى القرية الواحدة ستة قروش » . (ص ٣٦) وقد كان نجاح شمروخ فى إرواء عطاشى المولد تمهيداً أو تنبؤاً بنجاحه فى تزويج معوض وبتول .

ومن زاوية مقابلة يلتقط المؤلف الموقف مرة أخرى عن طريق بضعة سياح بينطلوناتهم القصيرة وآلات تصويرهم معلقة فى أعناقهم يتحدثون فى هذه الجموع البدائية ، والجموع فى مقابل ذلك تشير إليهم وتقول « انظروا إلى البلهاء » . (ص ٣٠) . ومرة عن طريق طالب جامعى يقول لزميله ذى السوالف الطويلة : تفرج على منظر أهالى النجوع البعيدة وقرى غرب النيل . لوجاء بعض الصحفيين الأجانب هنا لفضحونا فى صحف أوربا (ص ٣٩) .

وتستنجد أم بتول بشيخ العرب شمروخ بعد أن تروى له ما وقع بين ابنتها ومعوض ، فيضع خطته التى يبدأها - بمعاونة بعض الشبان المتحمسين - باختطاف معوض ، ثم يختطف محمد على السوالى والد بتول فى شوال ، ثم يرسل الدعوات طالباً نقوطه الحقيقية فقد كتب فى الدعوات أن معوض ابنه . ويتم العرس . وتحوّل نجع السوالم إلى زحام يفوق زحام مولد الشيخ عامر لمشاهدة غوازى مدينة إسنا اللاتي أحضرهن شمروخ . وبعد العرس يذهب شمروخ لفلك وثاق محمد على السوالى فيجده قد مات - ربما كمدًا - فتقبض عليه الشرطة ويخرج من قريته فى طريقه إلى السجن مرفوع الرأس . إن عبد الوهاب الأسوانى حرص ألا يترك إحدى الكفتين مرفوعة ، فبعد أن نفرح معه بشهادة شمروخ وبخاصة بنجاحه فى حلّ هذا المأزق ، وتحتفل معه بهذا العرس الباذخ ، تعود فتقبض لتلك الليلة التى مات فيها والد العروس وقبض بسببها على شمروخ . ونلاحظ هنا أنه إذا كان رفض زواج معوض من بتول يقوم على أسس قبلية ، فإن فرض زواجهما تم على الأساس القبلى نفسه .

إن عبد الوهاب الأسوانى حرص على أن يقوم بناؤه الرواى على أساس نقطة مقابل نقطة كما عبر عن ذلك الأستاذ سامى خشبة فى مناقشة إذاعية حول هذه الرواية . فهو يقدم أولاً بيئته الأسوانية بحب ورفض معاً كما جاء فى صفحة الغلاف الأخيرة للرواية . وهو يقدم الخلفية العامة لروايته كالبينة الجغرافية أو الطبيعية والاجتماعية ، فى مقابل التركيز على لقطات محددة وجزئيات بعينها . هناك أيضاً تقابل بين الشيخ كالعمدة والشيخ علّام ومحمد على السوالى والد بتول وعبد الغنى الجوابرى والد معوض الذين وقفوا يحولون دون زواج بتول من معوض أو على

الأقل لم يتحمسوا له ، وبين الشباب الذين عاونوا شمروخ في فرض هذا الزواج باختطاف معوض ووالد بتول ثم كتابة الدعوات وإعداد حفل الزواج وإنجاحه .

وتقابل آخر بين عالم الرجال وعالم النساء ، حيث ينفصل العالمان طبقا للتقاليد ولا ينفصلان طبقاً لواقع الحياة . فالنساء والرجال يتقابلون في السوق وفي المولد وعلى القوارب والمراكب ، ومن الممكن للمرأة أن تدخل مجتمع الرجال وتحصل على هديتها كما فعلت بتول ، وأن تقول رأيا فيهم بل تشتمهم كما كانت تفعل جدة مصطفى في رواية « سلمى الأسوانية » ومنصورة زوجة الشيخ درويش في رواية « وهبت العاصفة » (١٩٧١) . يمكن أن يحدث هذا اللقاء الشكلي ، بينما هناك انفصال نفسي بين العالمين .

وهناك التقابل بين كهرومان وشمروخ ، كل يريد أن يجمع بين معوض وبتول . كهرومان تدفعها دوافع شهوية أوضح وأعنف ونجحت في أن تجمع بينهما في الخطيئة وفي سرية . وشمروخ تدفعه دوافع جنسية أكثر خفاءً ، ونجح في أن يجمع بينهما علناً وشرعاً . ثم نصل إلى تلك النهاية ذات الطرفين المتقابلين : نهاية سعيدة بالنسبة لمعوض وبتول ، ونهاية مفرجة بالنسبة لوالد بتول وشمروخ ، فننتقل من زغاريد العرس إلى ولولات الموت ووحشة السجن ، من ماض عرفناه إلى مستقبل مجهول المصير .

هناك أخيراً ذلك التقابل بين قبيلتي السوالم الكثيرة العدد ، الفقيرة الكسولة المشاغبة . وقبيلة الجوارب القليلة العدد الدمثة التي تتمتع بمستوى معيشي أفضل .

والواقع أن محوراً رئيسياً من محاور البناء الروائي عند عبد الوهاب الأسواني هو هذا التقابل القبلي . نجده في رواية سلمى الأسوانية بين قبيلتي البراطيم الكثيرة العدد والمساعد قبيلة مصطفى راوى القصة الأقل عدداً والأكثر شجاعةً ، وتصل الخلافات بين القبيلتين إلى حافة المعركة دون نشوب المعركة ذاتها . كذلك في روايته « وهبت العاصفة » بين أهل السيل الكثيرة العدد وأهل الشرقية الأقل عدداً والأكثر شجاعةً . وإذا كان التقابل القبلي يمثل رافداً جانبياً في « سلمى الأسوانية » ليحل محله تقابل أشمل بين المجتمع الحضري ممثلاً في الإسكندرية والمجتمع شبه البدوي المتمثل في النجع بجزيرة المنصورة بمدينة أسوان ، فإن التقابل القبلي في رواية « وهبت العاصفة » هو محور الرواية الرئيس وأساس الصراع الدرامي من أولها إلى آخرها ، ويصل الصراع بين المجموعتين إلى حافة الحرب أيضاً دون وقوعها . وتتكشف حدة

الصراع حين تتوقف على نهايته مصير العلاقة العاطفية بين حسين من أهل الشرقية وبدوية من أهل السبيل . أما الخلاف القبلي في « اللسان المر » بين السوالم والجوابر فلم يرتفع إلى حد التأهب للحرب ، لكنه كائن ومعترف به بحيث أصبح أساساً من أسس الحياة اليومية . وليست علاقة معوض يتول إلا إدامة لهذا الخلاف ، وليس ما ارتكبه من علاقة غير مشروعة إلا تصعيداً لهذه الإدامة .

ونلاحظ أن هناك دائماً من يمنع التصادم من الوصول إلى ذروته ، فنجد الشيخ محارب في رواية « سلمى الأسوانية » ، والشيخ موسى الكاظم في رواية « وهبت العاصفة » والشيخ شمروخ في « اللسان المر » . ولكن « اللسان المر » تنفرد بأن العلاقة بين معوض ويتول تحدت الشريعة القبلية مرتين : مرة بنشأة العلاقة نفسها ومرة باقتراحها ما هو محرم حتى على فردين في القبيلة نفسها . وبقدر ما كان هذا التصعيد في العلاقة بينهما ، بقدر ما كانت نهاية الوسيط هنا أكثر مأساوية ، فقد أنقذ الشيخ شمروخ غيره على المستويين الجماعي والفردى ولكن على حساب مصيره ، وهو ما لم يحدث للوسيطين في الروایتين الأخريين .

فالصراع على المستوى القبلي تقابله علاقة حب بين طرفين على مستوى فردى . ولئن كان الصراع على المستوى القبلي يفضي توتراً على علاقة الحب على المستوى الفردي ، فإن الحب على المستوى الفردي - ومن خلال هذين الفردين - يكشف هذا الصراع ويدينه ويرفضه . وإذا اعتبرنا مجتمع عبد الوهاب الأسواني في جزيرته النيلية الصغيرة القابعة في أعماق صعيد مصر رمزاً للمجتمع الإنساني ، « سكان الجزيرة لا يعرفون بأن بلدتهم مجرد جزيرة تتوسط نهر النيل . . . يعتقدون أنها إمبراطورية مترامية الأطراف من حقها أن تتعامل مع القرى التي تجاورها كما تتعامل إمبراطورية عظيمة مع البلاد التي تقل عنها شأنًا » . (سلمى الأسوانية ، ص ١٠) فنحن حقاً أن نخلص إلى أن البناء الروائي عند عبد الوهاب الأسواني له هدف موضوعي هو إدامة التعصب ورفضه والحنو على الحب ورعايته .